ملامح المنظومة القيمية للمجتمع القلعي الحمادي
– منطلقات الفكر وأنماط السلوك–

الأستاذ: لخضر بولطيف
قسم التاريخ، جامعة المسيلة

❋❋❋❋❋❋❋❋

إن البحث في المنظومة القيمية للمجتمعات الوسيطة، يعد من الأبحاث المستجدة في مجال التاريخ الإسلامي في عصرنا الحاضر، ويأتي نظيرا –ولا ندعيه بديلا– للأبحاث القائمة على المنهج المادي، والتي طالما اختزلت النشاط البشري في زاوية ضيقة، لا تكاد تخرج عن تحصيل لقمة العيش، وهذا بحد ذاته تحد كبير، فضلا عما يكتنف البحث في القيم الاجتماعية من محاذير، أقلها الانزلاق إلى إطلاق أحكام معيارية أخلاقية على الأحداث والوقائع التاريخية، إذ تكاد الحدود تتداخل بين التقويم التاريخي والمحاكمة التاريخية.

ويحاول الموضوع المقترح تجسيد هذا التناول، وتحصيل بواكير نتائجه، من خلال التصدي لدراسة المجتمع القلعي– الحمادي، كنموذج للمجتمعات القروسطوية، التي نتطلع إلى معرفة المرجعيات الدينية والخلفيات الفكرية التي أطّرت رؤاها، وأسهمت في توجيه حياتها؛ فضلا عما سادها من مفاهيم، وتصورات، وأنماط سلوك.

أما عن أهم الروايات التي جرى استثمارها في هذه المقاربة، فهي تلك العائدة إلى: ابن شرف، وابن رشيق، وابن شدّاد، وابن حمّاد، والرقيق، والورّاق، والتي نقف عليها –غالبا– من خلال ابن القطّان، وابن عذاري، وابن خلدون، وابن الخطيب، وابن عبد الملك، وغيرهم. فضلا عما أمدتنا به كتب التراجم والطبقات، والمناقب والأنساب، والجغرافيا والبلدان، من إشارات غير هيّنة.

يرافع ابن خلدون[1] عن المجتمعات البربرية –والمجتمع الحمادي من ضمنها– فينسب إليها التخلق بكثير من الفضائل الإنسانية، والتنافس في الخلال الحميدة، من عز الجوار، وحماية النزيل، وقِرَى الضيف، والوفاء

[1] **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، 122/6.

بالعهد، وعلو الهمة، وإباية الضيم، والصبر على المكاره، والثبات في الشدائد، والإغضاء عن العيوب، والتجافي عن الانتقام.

كما يمتدح إقامتهم لمراسم الشريعة، وأخذهم بأحكام الملة، استنادا إلى ما نُقل عنهم من إقامتهم للصلوات في بواديهم، وتدارسهم القرآن في أحيائهم، وتحكيمهم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم[2].

ويذهب إلى حد القول بوقوع الخوارق فيهم، وظهور الكاملين من النوع الإنساني من أشخاصهم؛ فقد "كان فيهم من الأولياء والمحدّثين أهل النفوس القدسية والعلوم الموهوبة، ومن حملة العلم عن التابعين ومن بعدهم من الأئمة، والكهّان المفطورين على المطّلع للأسرار المغيبة..."[3].

فهل هذا الصنيع من ابن خلدون لون من تقرير الحقائق وفلسفة الوقائع التي كان ينبغي أن تجد طريقها إلى مقدمته، لا أن يجري إدراجها في تاريخه؟ أم أن الأمر لا ينفك عن خطاب تاريخي، صيغت مفرداته في ظل دول تنحدر من أرومة بربرية لا شيّة فيها؟

يتعين علينا أن نختبر التقريض الخلدوني من خلال الفحص عن جملة من المعطيات، والوقوف على عدد من الشواهد والإفادات ذات الصلة بالتاريخ العياني للمجتمع القلعي- الحمادي.

1- الاستعلاء بالنسب العربي:

الاختلاف حول نسب صنهاجة؛ فيما إذا كانت تمتّ إلى الأرومة العربية بصلة، أم أنها تنحدر من الأرومة البربرية، من أكثر النقاشات إثارة للجدل بين المؤرخين والنسّابة.

ففيما يسوق ابن خلكان[4] والنويري[5] نسب بني زيري الصنهاجيين -الأول نقلا عن العماد الأصفهاني، والثاني عن ابن شداد الصنهاجي- عبر ما ينيف عن خمسين جدّا، فيصلان به إلى يَعْرب بن قحطان من ذرية سام بن نوح عليه السلام.

فإن ابن خلدون يذهب -بعد استعراضه لمختلف الروايات المأثورة بشأن أوّلية البربر وأنسابهم- إلى التشكيك في صحة النسب العربي المزعوم، في قوله: "أما نسابة البربر فيزعمون في بعض شعوبهم أنهم من

---

(2) المصدر السابق، 122/6-123.

(3) المصدر السابق، 123/6.

(4) **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عبّاس، بيروت: دار صادر، 77-1978، 304/1.

(5) **نهاية الأرب في فنون الأدب**، الجزء 22، تحقيق: مصطفى أبو ضيف أحمد؛ نشره بعنوان: تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، الدّار البيضاء: دار النّشر المغربيّة، 1985، ص300.

العرب... أنهم من حِمْيَر... والحق الذي شهد به المواطن والعُجمة أنهم بمعزل عن العرب، إلا ما تزعمه نسّابة العرب في صنهاجة وكتامة، وعندي أنهم من إخوانهم"[6].

كذا ابن حزم -من قبله- لم يتردد في نفي أي نسب عربي دعيّ عن البربر، إذ يقول: "وادّعت طوائف منهم إلى اليمن، إلى حِمْيَر، وبعضهم إلى بُرّ بن قيس عَيلان. وهذا باطل، لا شك فيه. وما علم النسابون لقيس عيلان ابنا اسمه بُرّ أصلا. ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر، إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن "[7].

وبصرف النظر عن مسألة اصطناع الأنساب التي لا شك أنها تسترعي الانتباه في التاريخ البربري بشكل عام، لما ظل يعنيه الدخول في نسب عربي صميم من اكتساب مشروعية سياسية تاريخية، فلقد لفت انتباهنا - بهذا الصدد- استنادا إلى عدد من الشواهد والإفادات أن قبيل صنهاجة طالما اعتبروا عربا في سياق التشريف والتنويه والتفاخر، أو قد عُدّوا بربرا على سبيل النكاية والإغضاء والتواضع.

فلما بنى زيري بن منّاد (334-360هـ/945-970م) مدينة "أشير"[8]، وكان الهدف من بنائها التصدي لقبائل زناتة التي كانت دائمة الثورة ضد الفاطميين، وبلغ ذلك القائم بأمر الله الفاطمي، قال: "مجاورة العرب خير لنا من مجاورة البربر"[9].

وكان من وصيّة المعز لدين الله الفاطمي لبلكين بن زيري (361-373هـ/971-983م)، وقد أستخلفه على المغرب حين عزْمه على المضي إلى مقر سلطانه الجديد بمصر، أن "لا ترفع السيف عن البربر"[10].

وأمام الملأ أعلن المنصور بن بلكين (373-385هـ/983-995م) في حفل تنصيبه على العرش: "وهذا الملك ما زال في يد آبائي وأجدادي، ورثناه عن حمير"[11].

---

(6) **العبر**، 114/6.

(7) **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط05، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص495.

(8) مدينة حصينة من بلاد الزّاب، قائمة بين جبال شامخة محيطة بها، حسنة المرافق، عميمة المنافع. يراجع الحميري **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، ط02، بيروت: مكتبة لبنان، 1984، ص60.

(9) النويري: **نهاية الأرب**، ص304-305.

(10) المصدر السابق، ص311.

(11) المصدر السابق، ص317.

عدا أن بلكين كان خاطب مولاه المعز كالمعتذر عن جسامة المسؤولية المسندة إليه: "يا مولانا، أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري؟ قتلتني يا مولانا بغير سيف ولا رمح"[12].

ولما ظهرت بوادر الشقاق بين الزيريين والفاطميين، وكان المعز بن باديس بن المنصور (406-454هـ/1015-1062م) يكاتب وزير المستنصر بالله الفاطمي، يستميله، ويعرّض له بالانحراف عن ولايتهم، يصنع ذلك تلميحا لا تصريحا، ومن ذلك تمثله ببيت من الشعر، وهو:

وَفِيكَ صَاحَبْتُ قَوْمًا لاَ خَلاَقَ لَهُمْ   لَوْلاَكَ مَا كُنْتُ أَدْرِي أَنَّهُمْ خُلِقُوا

فقال الوزير لبعض أصحابه: "ألا تعجبون من صبي بربري مغربي يحب أن يخدع شيخا عربيا عراقيا"[13].

ومهما يكن، فإن صنهاجة اعتدّت بهذا النسب وأعملته في الاستعلاء على غيرها من قبائل البربر، وبخاصة زناتة، حتى كان مما نُعت به مناد بن زيري أنه كان "شديدا على البربر"[14].

2- بين أعراف القبيلة وتقاليد الدولة:

لما كانت صنهاجة عريقة في الملك مقارنة بغيرها كزناتة مثلا، فإن المتوقع أن يكون أخذها بتقاليد الدولة أظهر من خضوعها لأعراف القبيلة.

وعلى ذلك يسعنا فهم ما أثر عن ملوك بني حماد من عناية بالبناء والعمران، فقد اختط حماد بن بلكين (405-419هـ/1014-1028م) القلعة أواخر القرن 04هـ/10م، واعتنى ببنائها وتمصيرها بما اتخذه فيها من "القصور العالية، والقِصاب المنيعة، والمساجد الجامعة، والبساتين الأنيقة"[15]، وما زال بها حتى "استبحرت في العمارة، واتسعت بالتمدن"[16].

---

[12] المقريزي: **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، ط01، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1998، 36/2.

[13] ابن أبي دينار: **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، ط03، بيروت: دار المسيرة، 1993، ص105.

[14] النويري: **نهاية الأرب**، ص309.

[15] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام**، تحقيق: سيد كسروي حسن، ط01، بيروت: دار الكتب العلمية، 2003، 329/2.

[16] ابن خلدون: **العبر**، 202/6.

وعلى هدْيه درج الناصر بن عَلَنَّاس (454-481هـ/1062-1088م) الذي يمثل واسطة عقد ملوكهم، ففضلا عن تأسيسه لحاضرة جديدة سماها النّاصرية وشهرت ببجاية[17]، فإنه زاد في عمارة القلعة قصورا فخمة، أتى ابن الخطيب[18] على ذكر أسماء عدد منها؛ كقصر العروسين، وقصر بلاّرة، وقصر الخلافة، وقصر الكوكب، وقصر حمّاد، وقصر الملك، وقصر المنار، ... ويَنقُل عن المؤرخ ابن حمّاد الصنهاجي القلعي (ت 628هـ/1231م) قولَه: "وقد محا اليوم محاسنها الزمان، وغيّر حالها الحدثان"[19].

ولن يتأخر المنصور بن الناصر (481-498هـ/1088-1104م) عن شأو سلفه في هذا المضمار فقد شُهد له أنه كان مولعا بالبناء، وأنه "هو الذي حضّر ملك بني حماد، وتأنق في اختطاط المباني، وتشييد المصانع، واتخاذ القصور، وإجراء المياه في الرياض والبساتين"[20]. كما اقترن عهد خلفه العزيز بن المنصور (498-515هـ/1104-1121م) أيضا بـ"آثار عظيمة، ومبان رفيعة"[21].

ويحدثنا صاحب الاستبصار عن بعض تلك القصور في قوله: "ولبني حماد بالقلعة مبان عظيمة، وقصور منيعة، متقنة البناء، عالية السناء، منها قصر يسمى بدار البحر، وقد وضع في وسطه صهريج عظيم تلعب فيه الزوارق، يدخله ماء كثير من ماء مجلوب على بعد. وهذا القصر مشرف على نهر كبير، وفيه الرخام والسواري ما يقصر عنه الوصف"[22].

وكان من الطبيعي أن يرافق هذا الاتساع في العمران تفنن في المعاش وأطايب الحياة، من ذلك ما شهدته القلعة من ازدهار صناعات الترف التي تتطلبها حياة القصور وعِلْية القوم، فكان يضرب المثل بجودة الثياب القلعية التي لا تضاهى رقة ورونقا، وجاء في وصفها: "وبها [القلعة] الأكسية القلعية، الصفيقة النسج، الحسنة المطرزة بالذهب، ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث يُنزّل مع الذهب بمنزلة الإبريسم"[23].

---

[17] المصدر السابق، 206/6.

[18] **أعمال الأعلام**، 332/2.

[19] المصدر السابق، 332/2.

[20] ابن خلدون: **العبر**، 206/6-207.

[21] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، 334/2.

[22] مجهول: **الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، ط02، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة – الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 1986، ص168.

[23] ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، بيروت: دار صادر، 1977، 390/4.

وإذا كانت العناية بالعمران ومتعلقاته مما يؤيد رسوخ النزعة الملوكية لدى حكام بني حماد، غير أن انخراطهم بالموازاة مع ذلك في حروب متصلة مع جيرانهم أو في نزاعات دامية فيما بينهم، أبدوا فيها من ضروب القسوة والغدر والخيانة والانتقام، لمِمّا يعكّر على خلوص تلك النزعة التي شابتها –دون ريب– الكثير من عوائد القبلية وطباع البداوة.

تتضافر الروايات على تأكيد غلبة الروح القتالية لدى حكام بني حماد وجرأتهم على سفك الدماء، من خلال عبارات من قبيل كان "جبارا"[24]، "عظيم السطوة"[25]، "شديد البأس"[26]، "سريع البطش"[27]، "سفاكا للدماء"[28]، وخُص بلكين بن محمد بن حماد (447-454هـ/1055-1062م) بالنصيب الأوفر من هذه النعوت، حتى كان مما نعت به أنه "أحد جبابرة الإسلام... قد تجاوز في شذوذ أمنيته، وقهر رعيته، والإخافة لأقرانه، والاستبداد على زمانه، غاية من سلف من جبابرة الأرض"[29].

وتمدنا المصادر –مع كل ما يمكن إبداؤه حيالها من تحرّزات مشروعة– بوقائع غاية في الفظاعة من شمول القتل للأطفال والنساء والشيوخ، فحين احتدم النزاع بين حماد وأخيه إبراهيم من جهة وابن أخيهما باديس بن المنصور (385-406هـ/995-1015م) من جهة ثانية، وحدث وأن انحاز بعض أهل القلعة إلى صف باديس، وخلّفوا وراءهم أزواجهم وأبناءهم، فعمد إليهم إبراهيم "يذبح الأولاد على صدور أمهاتهم، ويشق بطونهم، ويشوه بهم، وفعل أفعالا شنيعة!"[30].

ولما انهزم حماد أمام ابن أخيه باديس إلى القلعة، مكث بها مليّا ثم سعى في طلب المؤونة، فهاجم مدينة "دَكْمَة"[31]، وأعمل السيف في أهلها، فخرج إليه أحد فقهائها، ووعظه قائلا: "يا حمّاد! إذا لاقيت الجموع هربت منها، وإذا قاومتك الجيوش فررت عنها! وإنما قدرتك وسلطانك على أسير يكون في يديك، لا ناصر له عليك!"، فلما سمع كلامه أمر بضرب عنقه.

---

(24) ابن خلدون: **العبر**، 203/6.

(25) ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، 334/2.

(26) ابن خلدون: **العبر**، 208/6.

(27) ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، 334/2.

(28) ابن خلدون: **العبر**، 204/6.

(29) ابن بسّام: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، 1997، 189/1.

(30) النويري: **نهاية الأرب**، ص331.

(31) بلدة بالمغرب الأوسط، تقع على نهر كبير، ذات مزارع ومسارح. يراجع البكري: **المسالك والممالك**، تحقيق: جمال طلبة، ط01، بيروت: دار الكتب العلمية، 2003، 232/2.

وبرز إليه أحد صلحاء المدينة، وخاطبه بقوله: "يا حمّاد! اتّق الله! فإني حججت حجّتين!"، فرد عليه متهكما: "وأنا أزيدك عليها الشهادة!"، وأمر به؛ فضربت عنقه. وأقبل إليه جماعة من التجار المسافرين، فقالوا له: "نحن قوم غرباء، ولا ندري ما جنى أهل هذه المدينة عليك!"، فقال لهم: "اجتمعوا وأنا أعرّفكم!"، وخالطهم بعض أهل المدينة ممن طمع في الخلاص معهم، فلما وصلوا إليه، أمر بهم جميعا فقتلوا، ثم سطا على ما بتلك المدينة من مؤونة، وعاد إلى قلعته[32].

ونطالع مثل هذه المشاهد المستغربة في سيرة والده بلكين بن زيري، فإنه على إثر هزيمته لزناتة في موقعة مشهودة، أقام بموضع المعركة ثلاثة أيام، فلما شكا إليه جنوده رائحة الجثث المتعفنة، نادى في المعسكر "أن لا تطبخ قدر إلا على ثلاثة رؤوس من رؤوس القتلى، وجعل الجثث أكواما وصعد المؤذنون، فأذّنوا عليها!" [33].

ومن تلك المشاهد -أيضا- ما نطالعه في أخبار أخي حماد المنصور بن بلكين، حيث لما ظفر بأحد خصومه، أمر به فلطم لطما شديدا حتى أشرف على الموت، ثم أمر بإخراجه وقد بقيت فيه حشاشة من الروح، فأخذه بعض رجاله؛ "فنحره، وشقّ بطنه، وأُخرجت كبده، فشُويت وأُكلت!، وشرّح عبيد المنصور لحمه وأكلوه، حتى لم يبق إلا عظامه!"[34].

ولم يسلم من سطوة بني حماد وفتكاتهم حتى أقرب المقربين منهم، ومن ذلك أن القائد بن حماد (419-446هـ/1028-1054م) حين شعر بدنو أجله كان مما أوصى به ابنه ولي عهده أن يحسن إلى بني عمومته من بني حماد[35]، لكن محسن بن القائد (446-447هـ/1054-1055م) وقد صار الأمر إليه رام إقصاء جميعهم، فخالفوا عليه، وكان ممن بادر إلى الخلاف عمه يوسف بن حماد، فلم يتردد محسن في "قتل سائر أولاد حماد"[36].

ولم يلبث محسن أن دفع حياته ثمنا لذلك على يد ابن عمه بلكين بن محمد بن حماد[37]، هذا الأخير بعد أن انتصب مكانه، صادف أن مات أخوه مقاتل بن محمد فاتهم به زوجته وهي ناميرت بنت عمه علناس بن حماد "فقتلها"[38]، وهو ما أحفظ عليه أخاها الناصر بن علناس فتربص به إلى أن تمكن من قتله[39].

---

[32] ابن عذاري: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق: كولان وبروفنسال، ط03، بيروت: دار الثقافة، 1983، 264/1-265.

[33] النويري: **نهاية الأرب**، ص309.

[34] المصدر السابق، ص322.

[35] المصدر السابق، ص343-344.

[36] ابن خلدون: **العبر**، 203/6.

[37] النويري: **نهاية الأرب**، ص344.

والواقع أن غدر الإخوة وبني العمومة بعضهم ببعض كان من السلوكات التي استشرت بشكل واسع في نطاق البيت الحمادي، إلى الحد الذي أضحت معه مضرب الأمثال، فحين عزم الناصر بن علناس على الزحف إلى حصار تميم بن المعز بن باديس (455-501هـ/1063-1107م) بالمهدية، وكان قد حالف بعض أعراب بني هلال ليعينوه على حصارها، فأوعز تميم إلى من كان معه من العرب أن يخذّلوا إخوانهم الذين مع الناصر، فكان مما خاطبوهم به: "كيف وقعتم في هذا الأمر، وأردتم إتلاف مُلككم، هذا الناصر قد سمعتم غدر جده حماد لباديس، وغدر بنيه بعضهم بعضا"[40]، فكانت تلك المخاطبات من أقوى أسباب الهزيمة التي حاقت به.

وإذا كنا لا نعدم حالات من الوفاء نادرة، كما في قصة يسوقها لنا البكري عن حماد لما أوقع بأهل "باغاية"[41]، ومفادها أن حمادا فوجئ من بين أهل المدينة برجل يستغيث به عن فقدان ابنته فيمن فقد من النساء، فإذا هو صديق له من أيام الصبا، فأقبل عليه متوددا ملاطفا، وخاطبه بقوله: "والله لو خرجت إليّ بالأمس لحقنت دماء أهل بلدك لحرمتك عندي"[42]. فإن مثل هذه المواقف التي تنم عن الشهامة والنبل، والتي قد تجد لها تفسيرا في أخلاق الفرسان، لا تخفي من جهة أخرى حقيقة الحادثة التي سيقت بشأنها وهي الإيقاع بالأهالي العزل وإلحاق الأذى بالنساء والذراري.

وعلى أن الحروب والمآسي المصاحبة لها، مما لا تنفرد به حقبة دون أخرى، ولا تتحمل وزره دولة دون أخرى، إلا أن الملفت للانتباه فيما يتصل بدولة بني حماد أنها بدت في كثير من الأحيان وكأنما تفتقد لمبررات الوجود والاستمرار، فهي لم تتبن مشروعا سياسيا يقوم على مبدأ معين أو فكرة واضحة، وما اعتماد حكامها أسلوب القسوة والعنف في إدارة شؤونها سوى نوع من التعويض لافتقاد هذا الجانب الذي كان بارز الحضور لدى جارتها الصنهاجية دولة المرابطين.

---

(38) ابن خلدون: **العبر**، 204/6.

(39) ابن بسّام: **الذخيرة**، 191/1.

(40) النويري: **نهاية الأرب**، ص350.

(41) مدينة كبيرة حصينة، لها أرباض وأسواق عامرة، ولها واد يدخل إليها من جهة القبلة منه شرب أهلها، وهي قريبة من جبل أوراس. يراجع الإدريسي: **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس**؛ من كتابه: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تحقيق: إسماعيل العربي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص177-178.

(42) البكري: **المسالك والممالك**، 376/2.

ونكاد نلمس فداحة الشعور بهذا المأزق في قول المنصور بن بلكين حين توليته: "إن أبي وجدي أخذا الناس بالسيف قهرا، وأنا لا آخذ الناس إلا بالإحسان"[43].

لكن حماد بن بلكين لا يبدو أنه استوعب أبعاد مقولة أخيه المنصور إلا حينما عاين عن كثب من قلعته مراسيم تشييع جنازة ابن أخيه باديس بن المنصور، ورأى من أمارات وفاء وإخلاص جنوده له ميتا ما لم يحظ به حماد حيا، فقال لبعض خاصته: "مثل هؤلاء ينبغي أن تتخذ الملوك، وتبذل فيهم النّعم، وصلت إلى إفريقية في ثلاثين ألف فارس، ما منهم إلا أحسنت إليه، وأنعمت عليه، فعدت إلى القلعة، وما بقي معي منهم إلا أقل من ستمائة، وأنا بينهم حيّ أُرجّى، وهذا ميت قد أطاعه هؤلاء ميتا كطاعتهم له حيا"[44].

3- المرأة.. رافد القبيلة وشرف العشيرة:

ظلت المرأة تمثل المعادلة الأصعب في سياق منظومة القيم، التي كانت تدين بها المجتمعات الإسلامية الوسيطية، فمن ناحية كانت المرأة تتطلع إلى نيل الحظوة التي أهّلتها لها الأحكام والشرائع المنزّلة، ومن ناحية أخرى ما فتئت تجد نفسها رهن كثير من العادات والتقاليد التي تحدّ من فاعليتها، بل وتمتهن كرامتها أو تصادر على خياراتها في رسم مسار حياتها.

وعلى ما بين المجتمعات الصنهاجية من تماثل في عدد من جوانب الحياة، وطبيعة المبادئ والقيم السائدة، لكن يسعنا أن نلاحظ في يسر أن ما تمتعت به المرأة المرابطية من هامش حرية وحجم حضور قد لا يقارن بما أتيح لنظيرتها الحمادية.

ويكفي أن نستشهد بهذا الصدد بالدور الذي لعبته السيدة حواء زوجة الأمير تاشفين بن يغمر المسوفي، وذلك لما انبعث النزاع بين الحماديين والمرابطين على تلمسان، فإنها انبرت أمام الأمير الحمادي المنصور بن الناصر الذي اقتحم جيشه المدينة "متذممة، راغبة في الإبقاء، متوسلة بوشائج الصنهاجية، فأكبر قصدها إليه، وأكرم موصلها، وأفرج عنهم صبيحة يومه، وانكفأ راجعا إلى حضرته بالقلعة"[45].

---

[43] النويري: **نهاية الأرب**، ص317.

[44] ابن عذاري: **البيان المغرب**، 268/1؛ وابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، 323/2-324.

[45] ابن خلدون: **العبر**، 208/6.

كما لم يكن الانتساب إلى الأمهات عند الحماديين شائعا مثلما كان لدى المرابطين، ولم تطالعنا كتب التراجم إلا بحالة واحدة، ولم يقع الاتفاق بشأنها، ويتعلق الأمر بالفقيه أبي عبد الله بن الرّمامة[46] (479-567هـ/1086-1171م) فقد قيل "أن الرمامة امرأة نسب إليها"[47]، وقيل "هو لقب جرى على أحمد جد أبيه"[48].

وإذا كانت ظاهرة تعدد الزوجات أمرا مألوفا في العصر الوسيط، وخاصة في الأوساط الحاكمة، حيث يتخذ الملوك والأمراء العديد من الزوجات والسراري، إما على سبيل الاستكثار من الأبناء والأصهار، أو سعيا وراء تحقيق أقصى درجات الإشباع والالتذاذ، إلا أن هذه الظاهرة تجاوزت حدود المألوف بالنسبة لبني حماد.

فمما يروى عن جدهم زيري بن منّاد أنه "ترك أولادا لا يحصيهم العدد"[49]، أو يزيدون عن المائة -بحسب رواية أخرى- "كلهم أنجاد فرسان كرماء، كاد أن يكتفي بهم في بعض حروبه"[50]. كما يروى أن بلكين بن زيري كانت له "أربعمائة حظية"[51]، حتى قيل إن البشائر تواترت عليه في يوم واحد "بولادة سبعة عشر مولودا"[52].

وهذا التوسع في التسري والإنجاب نشأت عنه وضعية معقدة ربما عدّت من غرائب الدهر، فقد قدّر البعض اجتماع أزيد من ألف امرأة في زمن واحد لا تحل أي منهن لزاوي بن زيري، لا لشيء سوى لأنهن جميعا من نسل إخوته[53].

ويبدو أن الأميرات الزيريات لم يكن -دوما- يحظين بأكفائهن، رغم شيوع زواج بني العمومة، عدا أن بعضهن ربما تمتعن بوضع أفضل من خلال مصاهرات سياسية اقتضتها مصلحة الدولة، ففي سنة 470هـ/1077م أبرم الصلح بين الناصر بن علناس الحمادي (454-481هـ/1062-1088م) وتميم بن

---

(46) هو محمد بن علي بن جعفر القيسي القلعي، كان فقيها حافظا أصوليا نظارا، متقدما في الفضل والورع والنزاهة. يراجع ابن الأبار: **التكملة لكتاب الصلة**، تحقيق: عزت العطار الحسيني، القاهرة: مكتبة الخانجي- بغداد: مكتبة المثنى، 1956، 2/676-677؛ وابن الزبير: **صلة الصلة**، تحقيق: عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1993، 3/21-22.

(47) ابن عبد الملك: **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق: محمد بن شريفة، الرباط: منشورات أكاديمية المملكة المغربية، 1984، 325/8.

(48) المصدر السابق، 325/8.

(49) الأزدي: **أخبار الدول المنقطعة**، تحقيق: عصام هزايمة وآخران، ط01، الأردن: دار الكندي، 1999، 33/1.

(50) النويري: **نهاية الأرب**، ص309.

(51) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، 287/1

(52) الأزدي: **أخبار الدول**، 34/1.

(53) ابن حزم: **رسالة نقط العروس في تاريخ الخلفاء**؛ ضمن مجموعة من رسائله، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981، 96/2.

المعز الزيري (455-501هـ/1063-1107م)، فزوّجه الأخير ابنته السيدة بلاّرة، وجهزها إليه من المهدية برّا "في عساكر عظيمة، ومال وأسباب وذخائر"[54].

كما صنع من بعده الأمير يحي بن تميم الزيري مع الأمير العزيز بالله الحمادي، إذ زوّجه ابنته السيدة "بدر الدّجى" وجهزها إليه[55].

غير أن هذا النوع من المصاهرات لم يكن -أحيانا- بمنأى عن عواقب وخيمة، فإن المنصور وعلى غرار أبيه الناصر، كان قد أصهر في زناتة، ثم لما تجدّد النزاع بينه وبينهم، وحلت به الهزيمة أمام زعيمهم "ماخوخ"، عمد إلى أخته "التي كانت تحته فقتلها"[56].

على أن القتل كان المصير المؤسف الذي يطال المرأة الحمادية أميرة كانت أو من عامة الناس، لأسباب أخرى لم تنفك -غالبا- عن تأصّل شعور الغيرة على الشرف، فلطالما اختزل شرف العشيرة في صيانة عرض نسائها.

وتؤثر بهذا الشأن أخبار مشهورة عن حماد وبنيه[57]، من ذلك أنه لما انهزم أمام ابن أخيه باديس، وولى أمامه هاربا في ثلة من جنده، خشي على نسائه أن يقعن في الأسر فتخلص منهن ومضى إلى معقله، وقد "وقف باديس عليهن وهن قتيلات"[58].

كما تستوقفنا -هنا- قصة بالغة الدلالة كان قد مر بنا شطر منها لما عرضنا لإيقاع حماد بأهل "باغاية"، وما اتفق له مع صديق صباه الذي جاءه يناشده استرداد ابنته من السبي، وتكملة القصة حسبما يُروى على لسان حماد -نفسه- أنه أصدر أوامره إلى قواده بإحضار جميع من كان في أخبيتهم من النساء، فتعرّف الرجل فيهن على ابنته، فأمر حماد بسترها وصرفها مع أبيها على أحسن حال، لكن المرأة رفعت صوتها مخاطبة حمادا، ودار بينهما هذا الحوار:

- قالت: لا والله يا حماد، لا رجعت مع أبي، ولا رجعت مع الذي غصبني!
- قال: وما الذي تريدين ويلك؟
- قالت: إني لا أصلح إلا للملوك، فلا حاجة لي بسواهم!

(54) ابن عذاري: **البيان المغرب**، 300/1.
(55) المصدر السابق، 306/1.
(56) ابن خلدون: **العبر**، 207/6.
(57) ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، 333/2.
(58) النويري: **نهاية الأرب**، ص332.

– قال: ومن أين تقولين إنك لا تصلحين إلا للملوك؟

– قالت: لأن عندي علما لا أُشارك فيه ولا يدعيه غيري!

– قال: ألا أريتنا شيئا من ذلك؟

– قالت: نعم، تأمر بقتل إنسان، وتحضر أمضى سيف عندك، أتكلم عليه بكلمات تمنع من تأثيره في أحد، ويعود في كف حامله أكَلَّ من قائمه!

– قال: إن الذي يجرّب هذا فيه لمغرور!

– قالت: أَوَيُتّهم أحد أن يريد قتل نفسه؟

– قال: لا.

– قالت: فإني أريد أن تجرب ذلك في حتى تروا عجبا!

فجيء لها بسيف قاطع، فتكلمت عليه كلمات، وأشارت إلى السماء مرارا، ثم مدت عنقها، فضربها السيّاف ضربة أطاحت برأسها عن جسدها.

يقول حماد: "فاستيقظت من غفلتي، وعلمتُ أنها تداهت علي، وكرهتْ العيش بعد الذي جرى لها وعليها". ويضيف قائلا: "واستبان لأبيها مثل الذي بان لي [بعد أن كان قد سبق إلى ظنه أنها قد فتنت وفسدت]، فجعل يلقي بنفسه عليها، ويتمرغ في دمها أسفا لما حل به فيها، واغتباطا بها لما رأى من عظم أنفتها، واختيارها الموت على ما نزل بها"[(59)].

ولن يشذ عن هذه القاعدة سوى آخر أمراء بني حماد وهو يحيى بن العزيز (515-547هـ/ 1121-1152م)، فإنه قيل فيه "كان مستضعفا، مغلّبا للنساء"[(60)]، قد انصرف إلى اللهو والمجون، يقضي وقته بين الملهين والمضحكين؛ "يحضر منهم عنده نحو العشرين بين رجل وامرأة، من شيوخ، وعجائز، وحمقى، ..."[(61)]، ولم يقتصر على ذلك بل "كان يُجلس –أبدا– بين يديه أخواته: تقسوط، وأم ملاّل، وشبلة، في زي العرائس من الحلي والملابس"[(62)].

ولا نشك –حينئذ– أن من تداعيات ما كان يصنعه الأمير الحمادي المستهتر مع خاصته، ما عاينه داعية الموحدين المهدي بن تومرت حين مروره ببجاية من مظاهر الإقبال على الملاهي، وتعاطي المسكرات،

---

(59) البكري: **المسالك والممالك**، 376/2-377؛ ومجهول: **الاستبصار**، ص169-170.

(60) ابن خلدون: **العبر**، 209/6.

(61) ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، 334/2.

(62) المصدر السابق، 334/2.

وتبرج النساء واختلاطهن بالرجال[63]، وكان من الطبيعي أن تستغل الدعاية الموحدية استشراء مثل هذه المظاهر لتبرير حركتها الإصلاحية التي ما لبثت أن أطاحت بالدول الصنهاجية الثلاث: المرابطية، والحمادية، والزيرية.

* * *

لما كان التاريخ يمثل الاستجابة الصحيحة، أو المغلوطة، لمنظومة القيم وعالم الأفكار، فإنه من الحري بنا إخضاع تاريخنا إلى دراسات معيارية؛ الهدف منها استبطان حياة المجتمعات التي عاشت ذلك التاريخ، وتفاعلت مع أحداثه ووقائعه، وصنعت تحولاته ومنعطفاته.

ونعتقد أن محاولتنا المتواضعة في مقاربة منظومة القيم في المجتمع القلعي- الحمادي قد أتاحت لنا إضاءة عدد من الزوايا المعتمة، وسبر أغوار بعض المحطات الخفية، التي تجتمع في المحصلة تحت عنوان منطلقات الفكر وبواعث السلوك.

[63] البيذق: **أخبار المهدي بن تومرت**، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، ط02، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص31-32.